Scientific Events Gate

Innovations Journal of Humanities and Social Studies

مجلة ابتكارات للدراسات الإنسانية والاجتماعية

IJHSS

https://eventsgate.org/ijhss

e-ISSN: 2976-3312

العلمُ أُسُّ دعوةِ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؛ لعموم وشمول دعوته للناس كافة

الأستاذ الدكتور مصطفى الزاهد

أستاذ باحث بوزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي/ المملكة المغربية

Dr.ezzahid@gmail.com

الملخص: يجيب هذا البحث عن الإشكال الوارد في الآية الكريمة: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [إبراهيم، الآية: 4]، كيف أرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بلسان قومه؛ وقد بعث للناس أجمعين إلى قيام الساعة؟ ويحقق مجموعة من الأهداف، منها: بيان مفهوم اللسان في القرآن الكريم وإبراز أهمية العلم في الدعوة إلى الإسلام، وبيان الحق في إزالة الإشكال في لغة الرسول محمد المبعوث للناس كافة إلى قيام الساعة. واعتمد على المنهجين: الوصفي والتحليلي، وقد توصل إلى نتائج، منها: أنه يمكن أن يقال إن اللسان بمعنى الحجة والدليل، وتفسير القرآن متروك لكل أهل زمان ومكان مما يتفق مع أصول التفسير، ويفسر تفسيرا يتلاءم مع قضايا الكون كله، كما يجوز أن نفسر اللسان باللغة العربية، وقد جاء القرآن بلغة العلم؛ لأن العلم أس دعوته، صلى الله عليه وسلم فيمكن أن نفسر الآية بالتفسيرين من باب اختلاف التنوع، وبذلك يزول الإشكال.

الكلمات المفتاحية: رسول، لسان، قوم، أرسل، القرآن.

Knowledge is the foundation of the call of the Messenger Muhammad, may God bless him and grant him peace. For the generality and inclusiveness of his call to all people

PRF. Dr. MUSTAPHA EZZAHID

Research Professor at the Ministry of National Education and Primary Education/ Kingdom of Morocco

Dr.ezzahid@gmail.com

Received 18/02/2023 – Accepted 22/03/2023 – Available online 15/07/2023

Abstract: This research seeks to address the confusion presented in the fourth verse of Surat Ibrahim regarding how the Prophet Muhammad, peace be upon him, communicated in the language of his people, and how this communication would continue until the Day of Judgment. The study aims to achieve several goals, including clarifying the concept of language in the Noble Qur'an, emphasizing the significance of science in the call to Islam,

and removing any confusion surrounding the language of the Messenger Muhammad, who was sent to all people until the Hour of Judgment. The study employed both descriptive and analytical approaches and reached several conclusions. The research suggests that the term "language" in this context refers to argument and evidence, and the interpretation of the Qur'an is open to all people of time and place, consistent with the principles of interpretation. It also proposes that an interpretation of the Qur'an should be compatible with the issues of the entire universe. Furthermore, it is permissible to explain the Qur'an in Arabic as the Qur'an came in the language of science. Knowledge is the foundation of the Prophet's call, and we can explain the verse using both interpretations to accommodate diversity, thereby removing any confusion.

Keywords: Messenger, tongue, people, send, the Qur'an.

المقـدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن علم القرآن الكريم بحر بلا ساحل، وقد ألفت في تفسير القرآن الكريم آلاف الكتب والأسفار، وفي كل عصر تبدو معان وأسرار، فلم يستطع العلماء المفسرون أن يصلوا إلى شاطئه، ويعلنوا عن الوصول إلى نهاية معانيه؛ لأن عجائب القرآن ليس لها نهاية تحصرها، ولا غاية تقف عندها، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم بأنه لا تنقضي عجائبه.

وقد قال عز من قائل: **{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} سورة الكهف:109**.

وقد أرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، إنسهم وجنهم عربهم وعجمهم؛ لذلك لم تكن معجزته محصورة بالزمان والمكان، بل صالحة لكل زمان ومكان، ولكل الأقوام والأجناس بمختلف لغاتهم، وقدراتهم العقلية والمادية؛ لتكون هذه المعجزة حجة لهم أو عليهم، فهذه المعجزة تتكلم بجميع لغات العالم، لغات العلم والمعرفة وستبقى خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن العلم أس دعوته صلى الله عليه وسلم.

مشكلة الدراسة:

عند التأمل والنظر في سيرة الأنبياء والرسل نجد أنه ما من نبي إلا وقد علمه الله تعالى ما كان سائدا لدى القوم الذين أرسل إليهم، وأعطاه معجزة تناسب لغة قومه، فكل رسول من أولي العزم كان يتقن لغة القوم الذين بعث إليهم أي ما كان يشغل حياتهم، فلما كانت لغة قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام صناعة الأصنام أعطاه الله تعالى معجزة تناسب لغتهم وهي القدرة على مواجهة ومقارعة الأصنام وزيادة، ولما كانت لغة قوم سيدنا موسى عليه السلام السحر أعطاه الله تعالى معجزة تناسب سحرهم وذلك بالقدرة على ما يشبه سحر قومه لنسفها، وزيادة، ولما كانت لغة سيدنا عيسى عليه السلام الطب أعطاه الله تعالى معجزة قومه وهي الطب وزيادة وذلك بالقدرة على علاج المرضى وإحياء الموتى، ولما كانت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عامة للناس كافة، أعطاه الله معجزة القرآن الكريم، وقد اشتمل على معجزات كل الأنبياء السابقين وزيادة والتي تناسب لغة القوم الذين أرسل إليهم وهم من بعثته إلى قيام الساعة؛ إذ العلم أس دعوته– صلى الله عليه وسلم– لذا وجب البحث عن إزالة الإشكال الذي يثار حول قول الله عز وجل: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [إبراهيم، الآية: 4]، وهذا مما يثير التساؤل: **كيف**

أرسل الرسول محمد . صلى الله عليه وسلم . بلسان قومه؛ وقد أرسل للناس أجمعين إلى قيام الساعة؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات الآتية:

1. ما مفهوم اللسان في لغة العرب؟

2 . ما المراد بالقوم في الآية الكريمة؟

3 . وما أقوال العلماء في إزالة الإشكال الظاهري في الآية؟

4 . ما وجه التحقيق في إزالة الإشكال؟ وذلك جوابا على الإشكال الظاهر في قوله تعالى: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم} (سورة: إبراهيم، الآية: 4)

وهذا البحث جاء ليكشف المفهوم الصحيح لمفهوم اللسان ويزيل الإشكال.

أهداف الموضوع

من خلال ما تمت الإشارة إليه سابقا تبرز الأهداف فيما يلي :

- بيان مفهوم اللسان في القرآن الكريم
- بيان الحق في إزالة الإشكال في الآية الكريمة
- إبراز أهمية العلم في الدعوة إلى الإسلام
- ذكر الأدلة القاطعة لعموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
- إزالة الإشكال في لغة الرسول محمد المبعوث للناس كافة إلى قيام الساعة.

أهمية الموضوع

تكمن أهمية البحث أن الله عز وجل أخبر أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه، فكل نبي أو رسول بعثه الله لعباده فهو يتكلم بلغتهم، ولكن عند التأمل والنظر في لغة الأنبياء والرسل نجد أنه ليس كل نبي يتكلم ويستعمل لغة القول الذين أرسل إليهم؛ لأن كل من بلغه رسالة رسول وجب عليه تصديقه واتباعه ما دام أنه فهم المقصود واستوعب القضية، ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسله الله تعالى إلى الناس كافة عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم غنيهم وفقيرهم فما سمع به أحد من بعثته إلى قيام الساعة إلا وجب عليه تصديقه وإن لم يتكلم لغته، والنصوص في هذا المسألة كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

الإطار النظري (الفرضيات)

مما سبق في سياق مشكلة الدراسة نفترض جدلا ما يلي:

أولا: أن المراد باللسان اللغة وأن كل رسول يبلغ رسالة ربه بلغة قومه، ومحمد صلى الله عليه وسلم بلغها بلسان ولغة قومه، وعلى قومه أن يتعلموا اللغات ليبلغوها إلى غيرهم من الأمم.

ثانيا: أن المراد باللسان العلم الذي كان موضوع اهتمام قومه، ومن جاء بعدهم إلى زمننا.

ثالثا: كل رسول كان يبلغ رسالة ربه بلسانهم أي بلغتهم الذين أرسل إليهم خاصة، ومن بعث للناس عامة يشملهما معا: اللسان بمعنى اللغة واللسان بمعنى العلم كمحمد صلى الله عليه وسلم.

المنهجية

اعتمد هذا البحث على المناهج الآتية: الإحصائي، حيث قام بإحصاء المعاني الواردة في القرآن الكريم لمعنى اللسان، والبيان، والوصفي، من خلال البحث عن وصف التفسير الذي ورد فيها، والتحليلي من أجل الكشف عن حل إشكاليته والجواب عن فرضياه.

حدود الدراسة

البحث يجيب عن إشكالية: كيف أن الرسول أرسل بلسان قومه وقومه من بعثته إلى قيام الساعة؟ ولغاتهم متعددة.

التحليل والمناقشة

ومن أجل تحقيق تلك الأهداف المرجوة انتظمت الدراسة تحت ثلاثة مباحث، وثمانية مطالب، ونتائج، وخلاصة، وتوصيات ومصادر ومراجع.

المبحث الأول: معاني المصطلحات: اللسان، الرسول، القوم، البيان

ومن أجل استخلاص المعاني للمصطلحات الواردة في الآية الكريمة، تم البحث عن مفاهيمها في معجم لغة العرب، وقد جاء كتاب الله تعالى بلغتهم، وذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: مفهوم اللسان في اللغة العربية والقرآن الكريم

1) اللسان في اللغة العربية:

اللسان: جارحة الكلام وقد يكنى بها عن الكلمة. ابن سيده واللسان: اللغة، مؤنثة لا غير. واللسن بكسر اللام: اللغة. واللسان: الرسالة. وحكى أبو عمرو: لكل قوم لسن أي لغة يتكلمون بها.

ويقال: رجل بين اللسن إذا كان ذا بيان وفصاحة، والإلسان: إبلاغ الرسالة.

(Ibn Manzur, 1119 c. 13, p. 385/386)

2) معاني اللسان في القرآن الكريم: قد وردت كلمة اللسان في القرآن الكريم بأربعة معان: اللغة، الدعاء، اللسان بعينه، الثناء الحسن، كما ورد إطلاق اللسان على الحجة والدليل، وهو المعنى الخامس، وتلك المعاني هي:

الأول: اللغة العربية، في قوله تعالى في سورة النحل: **{لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين}** كقوله تعالى في سورة الشعراء (الآية: 195) وفي قوله تعالى: **{وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين}** أي بلغة العرب.

الثاني: الدعاء، قوله تعالى: **{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون}** (سورة المائدة، الآية: 78) يعني دعاء داوود.

الثالث: اللسان بمعنى الجارحة، في قوله تعالى: **{لا تحرك به لسانك لتعجل به}** (سورة القيامة، الآية: 16) ونحوه.

الرابع: الثناء الحسن، قال الله تعالى: {واجعل لي لسان صدق في الاخرين} (سورة: الشعراء، الآية: 84) يعني ثناء حسنا.(Al-Damghani, 1970, p. 414/415) وقد ورد بمعنى الحجة، وهو المعنى:

الخامس: يقال: ينطق بلسان الله، أي بحجة الله. (Abou Al-Azm, Abdul Ghani, 2005, p.144) أي بالحجة والدليل الدال على صدق ما ادعاه.

المطلب الثاني: مفهوم الرسول والقوم

1) الرسول: من رسل الراء والسين واللام أصل واحد، منطرد منقاس، يدل على الانبعاث والامتداد. فالرسل: السير السهل، الرسل، ما أرسل من الغنم إلى الرعي. ورسيل الرجل الذي يقف معه في نفال أو غيره. جاء القوم أرسالا: يتبع بعضهم بعضا، الواحد رَسَل والرسول معروف.

(Ibn Faris, ch. 2, p. 393)

الرسول في اصطلاح الشرع: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام. والرسول في اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض، قال الكلي، والفراء: كل رسول نبي، من غير عكس. وقالت المعتزلة: لا فرق بينهما، فإنه تعالى خاطب محمداً مرة بالنبي، وبالرسول مرة أخرى. (Al-Jurjani, n.d. p. 96)

2) القوم: القاف والواو والميم أصلان صحيحان يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم. والآخر على انتصاب أو عزم. فالأول القوم، يقولون: جمع امرئ ولا يكون ذلك إلا للرجال.

قال الله تعالى: **{لا يسخر قوم من قوم}** ثم قال: **{ولا نساء من نساء}** [سورة: الحجرات، الآية: 11]، وأما الآخر فقولهم: قام قياما، والقومة المرة الواحدة، إذا انتصب. ويكون قام بمعنى العزيمة كما يقال: قام بهذا الأمر. إذا اعتنقه. وهم يقولون في الأول قيام حكم. وفي الآخر: قيام عزم. (Ibn Faris, ch. 5, p.34)

والقوم: الأمة والجماعة، فقوم كل أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة. وقوم كل رسول أمته المبعوث إليهم؛ إذ كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم العرب، وأما أمته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم الناس كافة. (Ibn Ashour, 1984 AD. 13, p. 187)

المطلب الثالث: مفهوم البيان في اللغة والاصطلاح

1) البيان في اللغة العربية: يقال بان واستبان وتبين نحو عجل واستعجل وتعجل وقد بينته.

والبينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة، وسمي الشاهدان بينة لقوله صلى الله عليه وسلم: **(البينة على المدعي واليمين على من أنكر)** الحديث أخرجه البيهقي. والبيان: الكشف عن الشئ، وهو أعم من النطق؛ لأن النطق مختص باللسان، ويسمى ما بين به بيانا. (Al-Ragheb Al-Isfahani, n.d. p. 89)

البيان اصطلاحا: عبارة عن إظهار المتكلم المراد للسامع، وهو بالإضافة خمسة:

1)**بيان التبديل:** هو النسخ، وهو رفع حكمٍ شرعي بدليلٍ شرعي متأخر.

2) **بيان الضرورة:** هو نوع بيان يقع بغير ما وضع له، لضرورةٍ ما، إذ الموضوع له النطق، وهذا يقع بالسكوت، مثل سكوت المولى عن النهي حين يرى عبده يبيع ويشتري، فإنه يجعل إذناً له بالتجارة ضرورة دفع الغرر عمن يعامله، فإن الناس يستدلون بسكوته على إذنه، فلو لم يجعل إذناً لكان إضراراً بهم، وهو مدفوع.

3)**بيان التغيير:** هو تغيير موجب الكلام، نحو التعليق، والاستثناء والتخصيص.

4) **بيان التفسير:** وهو بيان ما فيه خفاء من المشترك، أو المشكل، أو المجمل، أو الخفي، كقوله تعالى: **{وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة}**، فإن الصلاة مجمل، فلحق البيان بالسنة، وكذا الزكاة مجمل في حق النصاب والمقدار، ولحق البيان بالسنة، وهو النطق الفصيح المعرب، أي المظهر، عما في الضمير، وإظهار المعنى وإيضاح ما كان مستوراً قبله، وقيل: هو الإخراج عن حد الإشكال، والفرق **بين التأويل والبيان:** أن التأويل ما يذكر في كلام لا يفهم منه معنًى محصل في أول وهلة، والبيان ما يذكر فيما يفهم ذلك لنوع خفاء بالنسبة إلى البعض.(Al-Jurjani, n.d. p. 34)

5) **بيان التأويل:** وهو ما يدرك بعد بيان ما يفهم ذلك لخفاء معناه بالنسبة إلى بعض الناس.

المبحث الثاني: إعراب الآية وتفسيرها

المطلب الأول: إعراب الآية الكريمة

إن الإعراب مما يساعد على الفهم وإدراك معاني الآيات القرآنية؛ لذا سأعرب الآية الكريمة، موضوع البحث، ونستخلص منها مفهوم الحصر، قوله تعالى: **{وما أرسلنا من رسول من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم}** (سورة: إبراهيم، الآية: 4).

الواو: استئنافية. ما: نافية لا عمل لها. أرسل: فعل ماض مبني على الفتح لا محل له من الإعراب. نا: ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل. من رسول: جار ومجرور لفظا منصوب محلا لأرسلنا. إلا: أداة حصر لا محل لها. بلسان: جار ومجرور: صفة. لسان مضاف قوم مضاف إليه، وقوم مضاف، والهاء ضمير متصل مبني على الكسر في محل جر مضاف إليه. ليبين: اللام للتعليل ويبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. لهم جار ومجرور

متعلق بالفعل يبين. فيضل : الفاء: استئنافية. يضل فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة. لفظ الجلالة (الله) فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة. من: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. وجملة : يشاء من الفعل والفاعل لا محل لها من الإعراب صلة من. وجملة: (ويهدي من يشاء) معطوفة. وهو: الواو: استئنافية. هو: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. العزيز: خبر. الحكيم: نعته. وفي جعل اللسان لغة مجاز علاقته السببية لأنه آلة النطق؛ لأن معنى بلسان قومه: بلغة قومه. (Al-Darwish, 1412 AH-1992, c. 4, p. 142)

والآية تفيد الحصر أي أن رسالة كل رسول محصورة بلسان قومه الذين أرسل إليهم؛ لأن (إلا) إذا جاءت بعد (ما) فهي نافية، والجملة حينئذ تفيد الحصر.

المطلب الثاني: تفسير الآية الكريمة

قوله تعالى: **{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم} (سورة: إبراهيم، الآية: 4)** بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولاً إلا بلغة قومه؛ لأنه لم يرسل رسولاً إلا إلى قومه دون غيرهم، ولكنه بين في مواضع أخر أن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم كقوله تعالى: **{قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** وقوله: **{تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً}** وقوله: **{وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ}**، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته، لأهل كل لسان فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب عليه إبلاغ أهل كل لسان، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وعلى أهل السماء فقالوا بم يا بن عباس فضله على أهل السماء)، فقال إن الله تعالى قال: **{وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ}**، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرٰطاً مُّسْتَقِيماً}** قالوا: فما فضله على الأنبياء قال: قال الله تعالى: **{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم}** وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم: **{وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ}**، فأرسله إلى الجن والإنس»، ذكره أبو محمد الدارمي في مسنده وهو تفسير من ابن عباس للآية بما ذكرنا والعلم عند الله تعالى.(Al-Shanqeeti, n.d. vol. 3, p. 124)

تحليل واستنتاج:

بعد ذكر معاني الكلمات المؤطرة للبحث الواردة في كتب اللغة العربية ومؤلفات أهل الشأن، واستعراض معانيها في القرآن الكريم، وبيان تفسيرها عند بعض المفسرين تبين أن اللغة العربية من أغنى اللغات، وأنها قادرة على استيعاب كل المعاني التي يتخيلها تفكير الإنسان، وقادرة على احتواء كل اختلاف بين الأجناس والأقوام، واحتواء كل ما استجد في الحياة من علوم وفهوم، وما يطرأ من الأحداث التي قد تتعارض والشريعة الإسلامية؛ وقد شهد بذلك الغرب، وأطلقت وزارة الثقافة الأمريكية ستين ألف (60000) كتابا نادرا باللغة العربية من المخطوطات التي تملكها وجعلتها كتبا الكترونية بالتعاون مع أكبر الجامعات الأمريكية ووفرتها مجانا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة هذه اللغة العظيمة الحية والتي لا تموت أبدا، وإن اعتمدناها في حديثنا ودراستنا وكتابتنا لاستطعنا من خلالها أن نجد الإجابة والحلول لكثير من الأفكار التي قد تبدو مزدحمة ومتناقضة لدى كثير من الناس فتطمئن النفس وتهدأ العقول.

المبحث الثالث: أقوال العلماء في إزالة إشكال الآية

المطلب الأول: إزالة إشكال الآية عند الإمام الشافعي

قال الشافعي رحمه الله في الرسالة باب البيان الرابع، ج: 1، ص: 45: فالحجة فيه كتاب الله، قال الله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه}، فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة وأن محمدا بعث إلى

الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما لسان النبي ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه اتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كان لسانهم تبعا للسانه وكان أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه. ثم سرد الشافعي مجموعة من الآيات تدل على أن القرآن أنزل بلسان العرب ثم قال: فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما فرض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك. (Al-Shafi'i, 1940 pp. 46-48).

تحليل واستنتاج:

يستنبط من بيان الإمام الشافعي –رحمه الله – أن الواجب على المسلم أن يتعلم اللسان العربي بقدر ما يستطيع أن يؤدي ما فرض الله عليه من الواجبات، وما يستطيع من خلاله أن يعيد الله عز وجل ويذكره، وأما ما يخص حياته وعلاقته مع الآخرين فيتحدث بلغته التي يتكلم بها ونشأ في أحضانها؛ إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

المطلب الثاني: إزالة إشكال الآية عند الإمام الشوكاني والقاسمي وسيد قطب والطاهر بن عاشور

1) قال الشوكاني في فتح القدير: **{وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه}**، وقد قيل في هذه الآية إشكال؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس جميعا بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة. وأجيب بأنه وإن كان صلى الله عليه وسلم مرسلا إلى الثقلين لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وهم يبينوه لمن كان لسانهم ويوضحونه حتى يصير مفهوما كفهمهم إياه.

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع؛ لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما ليس لغيرها وربما كان ذلك أيضا مفضيا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون. (Al-Shawkani, 1428- 2007 c: 3, p. 94).

تحليل واستنتاج:

للإمام الشوكاني –رحمه الله – رأي آخر في حل الإشكال؛ ذلك أن نزول القرآن الكريم بكل اللغات –وما ذلك على الله بعزيز، فلله سبحانه وتعالى القدرة المطلقة–وذلك حتى لا يقع الناس في الاختلاف ويدعي كل أهل لغة معنى مختلف عن الأخرى، وبذلك يحصل التنازع المفضي إلى الخصومة وعدم الاستقرار.

وأما نزوله بلغة واحدة وهي اللغة العربية يوحد الكلمة ويجمع الآراء حول مفهوم معين، وإن حصل اختلاف في بعض الفروع فيكون داخل اللغة الواحدة وبذلك يزول الإشكال.

2) عند القاسمي: جاء في محاسن التأويل: فإن قلت: لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعا **{قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا}**، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم نكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة. وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضا. قلت لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد. فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه. فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من بيان التراجم في كل أمة من أمم العجم. (Al-Qasimi, 1957, vol. 6, pp. 298-299)

3) عند سيد قطب قال: رحمه الله: {وما أرسلنا من رسول..} وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه فتتم الغاية من الرسالة.

وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم –بلسان قومه– وإن كان رسولا إلى الناس كافة، لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر... والذي يتفق مع طبيعة العمر البشري المحدود، أن بلغ الرسول قومه بلسانهم، وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة الرسالة إلى الأصقاع –وقد كان– فلا تعارض بين رسالته للناس كافة، ورسالته بلسان قومه، في تقدير الله، وفي واقع الحياة". (Sayyid Qutb, (2003). c. 13, p. 2087)

4) عند الطاهر بن عاشور، قال: وإنما كان المخاطب أولا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم، ونزل الكتاب بلغتهم؛ لتعذر نزوله بلغات الأمم كلها. فاختار الله أن يكون رسوله – عليه الصلاة والسلام– من أمة هي أفصح الأمم لسانا، وأسرعهم أفهاما، وألمعهم ذكاء، وأحسنهم استعدادا لقبول الهدي والإرشاد.

واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب؛ لأنها أصلح اللغات، جمع معان، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع، وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادئ ذي بدء، وعهد إليها نشره بين الأمم. (Ibn Ashour, 1984 AD. 13, p. 187)

تحليل واستنتاج:

يزول الإشكال عند القاسمي، وسيد قطب، والطاهر بن عاشور –رحمهم الله – بما يلي:

1– عند القاسمي، أن الغرب المسلمين الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم مسؤولية تعلم لغات بقية الأمم لتبليغ رسالة الله عز وجل؛ فهم قد شرفهم الله بنزول الوحي بلغتهم، عليهم أن يتحملوا هذا التكليف، ويجتهدوا ليحصلوا على الأجر و الثواب المضاعف بهذا التشريف، ويترجموا أحكام الشريعة عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا ومبادئ؛ للدعوة إليها والالتزام بمضامينها.

2– وعند سيد قطب أنزل الله الوحي باللغة العربية؛ ليحصل البيان والإفهام للناس من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قومه بلغتهم التي يفهمونها ويعرفون فصيحها؛ لذا لم يحتاج الرعيل الأول إلى تعلمها فهم يتكلمون بها سليقة؛ وهم يبلغون ما بين لهم وما فهموه إلى أصقاع الأرض فلا تعارض بين بعثته إلى الناس كافة ونزول الوحي بلغة قومه خاصة.

3– وأما الطاهر بن عاشور فقد أوضح سبب نزول الوحي؛ لأن العرب أفصح الناس لسانا، وأسرعهم فهما، وأذكرهم ذكاء، ونزل باللغة العربية؛ لأنها أصلح اللغات، جمع معان، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع، وأهل هذه اللغة يبلغون الرسالة إلى بقية الأمم.

أقول: لقد فرق بعض العلماء بين قوم الدعوة وقوم الاستقبال، فالرسول صلى الله عليه وسلم أرسل بلسان قومه، قوم الاستقبال، أما قوم الدعوة فهم من بعثته إلى قيام الساعة. والمراد بالقوم في الآية الكريمة هم قوم الاستقبال.

المطلب الثالث: القرآن الكريم يتكلم بلسان غير العرب

يقر القرآن: أنه أنزل للناس كافة من أهل الكتاب وغيرهم في كل زمان ومكان، جيلا بعد جيل إذ يقول في سورة الفرقان: **{تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}** ويقرر القرآن: أنه منزل من عند الله وأن الله حافظ له من التغيير والتبديل على مر الأيام والدهور إذ يقول في سورة الحجر: **{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** حجة القرآن أنه منزل من عند الله لابد لكل دعوة صحيحة من حجة دامغة وبرهان قاطع يشهدان بصحتها ويلزمان المرسل إليهم بالتصديق بها، ولما كان القرآن خاتم الرسالات فقد جاء معه حججه الخالدة وجاء بها على منهاج لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة وكان ولا يزال هذا المنهاج وهو حجته القاطعة ودليله القائم على مر الزمان على صحة دعوته وما يدعو إليه.

جاء القرآن معجزا في بلاغة أسلوبه: جاء القرآن معجزا في بلاغة أسلوبه وسمو معانيه وجوامع كلمه، وجاء معجزا بما قصه من سير الأنبياء والمرسلين السابقين، التي ما كان يعلمها سوى علماء أهل الكتاب وجاء معجزا بما تضمن من تشريعات حكيمة ومثل عليا تفق مع طبائع البشر في كل مكان وزمان تكميلا لفطرتهم وضمانا لسعادتهم، وجاء معجزا بما حوى من آيات العلم والمعرفة الصحيحة عن الجانب المادي عن الكون مما لم يكن للناس علم به قبل نزوله أو بعده حتى جاء العلم الحديث بوسائل بحثه الدقيق المستندة إلى الخبرة والمشاهدة منذ أكثر من قرنين من الزمن فكشف عن كثير منها وأماط اللثام عن حقائقها ولم تتعارض حقائقه معها في شيء ما.

ولما كان القرآن منزلا للناس كافة في كل زمان ومكان من أهل العربية وغيرهم، ويصعب على غير العرب إدراك معجزاته الكبرى في بلاغته وأسلوبه، كان لهم من معجزاته الأخرى ما يمكنهم من إدراك إعجازه ويلزمهم الحجة بصدق دعواه إذ يفي نقل المعاني دون النص الأصلي بالغرض المقصود في هذا الشأن. (Hanafi, Ahmed. 1960. pp. 12–14)

فالقرآن الكريم يجمع بين إمتاع العقل وإشباع العاطفة، والقرآن قد وازن بين الأمرين، قال تعالى: **{ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...}** (سورة: النحل، الآية: 125)، فالحكمة: إمتاع العقل، والموعظة الحسنة: إشباع العاطفة، والكلام لا يبلغ التمام ولا التأثير ولا السحر في نفوس السامع إلا بعد أن يكون العقل فيه حاضرا وتكون القلوب فيه ملتهبة والعواطف متأججة.

ومما يدل على عمق الإعجاز في القرآن الكريم أن العبارة الوجيزة تشتمل على المعاني الكثيرة، ويدور أهل التفسير واللغة إلى الإحاطة بوجود هذا المعنى ثم يجدون أنه لا مانع أن من أن يكون المعنى الوارد في كل هذه الصور والأشكال مرادا لهذه الآية.

قلت: ومن معاني اللسان: الحجة، فيطلق اللسان على الحجة، كما يطلق على اللغة، والثناء الحسن، والدعاء، فالآية الكريمة تحتمل معاني متعددة، فهو من باب حمل المشترك على معانيه كما قال الطبري في تفسيره.

ومن ذلك نقول: لا مانع من إطلاق اللسان في الآية على الحجة الدامغة، ومما يؤكد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من حقائق علمية وكونية، تحدث عنها ما يربو على أربعة عشر قرنا قبل اكتشافها؛ لأن العلم أس دعوته صلى الله عليه وسلم، فقد سبق القرآن الكريم العلم الحديث في كثير من الحقائق العلمية، ومعنى ذلك: أن القرآن وهو يتحدث عن الإنسان أو النبات، أو عن أي مخلوق من المخلوقات إنما يصفه على حقيقته، لكن علم البشر يكون قاصرا عن إدراك تلك الحقيقة، منها: ما أخبر به القرآن من ضيق صدر من يرتفع في السماء، وتركز الإحساس بالألم والعذاب في الجلد، وجاء علوم القرن العشرين تؤكد وتصدق ما جاء في كتاب الله. (Al–Zindani, 1414 AH – 1994 AD, p. 74 and 77)

النتائج

فما هي الفرضية الصحيحة التي وضعت في البحث لتأكيدها أو ردها، أو الجمع بينها؟ والفرضيات هي:

أولا: أن المراد باللسان اللغة وأن كل رسول يبلغ رسالة ربه بلغة قومه، ومحمد صلى الله عليه وسلم بلغها بلسان ولغة قومه، وعلى قومه أن يتعلموا اللغات ليبلغوها إلى غيرهم من الأمم.

ثانيا: أن المراد باللسان العلم الذي كان موضوع اهتمام قومه، ومن جاء بعدهم إلى زمننا.

ثالثا: كل رسول كان يبلغ رسالة ربه بلسانهم أي بلغتهم الذين أرسل إليهم خاصة، ومن بعث للناس عامة يشملهما معا: اللسان بمعنى اللغة واللسان بمعنى العلم كمحمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد البحث والنظر في مفهوم اللسان في القرآن الكريم وجدت أنه يطلق على خمسة معان: اللسان العربي، والجارحة، والثناء الحسن، والدعاء والحجة والدليل، وبالتأمل في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم نجد أن كل تلك المعاني يتصف بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أنواع الاختلاف في معاني الآيات ما يطلق عليه اختلاف تنوع، وعليه فنستطيع

أن تفسر الآية بكل تلك المعاني حسب كل سياق التي ورد فيه الاستشهاد بها، ولكل مقام مقال، والقرآن الكريم آياته صالحة لكل زمان ومكان، فهو لا تنقضي عجائبه، ولا نهاية لمعانيه، وبذلك يتضح المعنى الحقيقي والمفهوم الشامل للآية، وجمعا بين أقوال المفسرين في إزالة الإشكال الموجود في الآية الكريمة، يمكن القول: إن كل ما ورد عنهم صحيح باعتبار أن تفسير القرآن متروك لكل أهل زمان ومكان مما يتفق مع أصول التفسير بالمأثور، واللغة ويفسر تفسيرا يتلاءم مع قضايا الكون كله –غير الأحكام التكليفية التي يتعلق بها الثواب والعقاب– فيجوز أن نفسر اللسان باللغة ونزيل الإشكال بما تقدم، كما يجوز لنا أن نفسره بالحجة والدليل العلمي، وقد ألفي في كتاب الله تعالى حقائق تذهل العقول، وتأخذ بلب أهل النقول، فهو قد أنزل بلغة العلم: بمفهومه الشامل، فالقرآن الكريم معجز بلفظه ومعانيه، بأخباره وأحكامه، بالحقائق العلمية في الآفاق، وفيه من العجائب ما هو أعمق وأدق، يزيد أهل الإيمان اطمئنانا، وأهل الجحود حجة وبرهانا، وفي ذلك دلالة قاطعة أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عامة عبر الزمان والمكان، والأشخاص والأعيان.

فإذا نظر فيه الفلكي قال كتاب فلك، وإذا نظر فيه الطبيب قال كتاب طب، وإذا نظر فيه المؤرخ قال كتاب تاريخ، وإذا نظر فيه الأديب قال كتاب أدب... كل يجد فيه ضالته، فهو كتاب تشريع ومنهج محكم، وهداية وإرشاد منظم، يزكي السائرين، وينير الطريق للحائرين، ونستنتج من ذلك أن تلك الفرضيات الثلاث صحيحة حسب كل رسول ومن أرسل إليهم، وأن ذلك من باب اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد.

الخلاصة

هذا البحث ناقش الإشكال المطروح:

كيف أرسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بلسان قومه وقومه من بعثته إلى قيام الساعة؟ ووضع لذلك فرضيات وأهدافا، ومتبعا مناهج الوصف والإحصاء والتحليل، وبين أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه وأحكامه وحكمه، وأسهم في الإجابة عنه من خلال البحث عن مفهوم اللسان والبيان في القرآن الكريم، وإعراب الآية الكريمة وتفسيرها، وأقوال العلماء في إزالة الإشكال الوارد عليها، وخلص إلى مناقشة النتائج المتوصل إليها، وبيان الحق في إزالة ذلك عن الإدراك في فهمها، وقدم مجموعة من المقترحات عبارة عن توصيات.

التوصيات

البحث عن مثل هذه المواضيع التي تبدو فيها إشكال في القرآن الكريم تقتضي توصية الباحثين والدارسين بما يلي:

1) توسيع معارفهم ومداركهم في اللغة العربية وفقهها؛ لأنها أساس فهم الوحي الالهي
2) عدم حصر الفهم في المعاني الجزئية، بل يلزم إطلاق العنان للتفكير بعمق في المصطلحات والمفاهيم
3) التفريق بين اختلاف تنوع واختلاف تضاد؛ حتى لا نقع في المحظور
4) على الأساتذة المؤطرين أن يوجهوا طلبتهم لمثل هذه المواضيع التي تبدو فيها إشكالات، والأمر ليس كذلك.

اللهم علمنا منه ما جهلنا وذكرنا منه ما نسينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، وعلى كل من اقتفى أثرهم إلى يوم الدين, آمين والحمد لله رب العالمين.

References

Al- Quran.

Abu Al-Azm, Abdul Ghani. (2005). Dictionary of Religious Terms. Al-Ghani Publishing Corporation. Rabat. Morocco.

Ibn Manzoor, Jamal al-Din Muhammad ibn Makram. (1119). Arabes Tong. Dar Al Maaref, Corniche of the Nile. Cairo. Egypt.

Ibn Faris, Abu al-Husayn Ahmad. (1399 A.H.-1979 A.D.). A Dictionary of Language Measures. Investigation, Abdel Salam Haroun. Dar Al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution. Beirut. Lebanon.

Al-Jurjani, Ali bin Muhammad Al-Sayyid Al-Sharif. (816 AH / 1413 AD). Dictionary of definitions. Investigation by Muhammad Siddiq al-Minshawi. Dar al-Fadilah. Cairo. Heliopolis.

Hanafi, Ahmed. (1960). Scientific Interpretation of the Cosmic Verses in the Qur'an. House of Knowledge, Cairo, Egypt.

Al-Damghani, Al-Hussein bin Muhammad. (1970). Dictionary of the Qur'an. First Edition, Beirut. Lebanon.

Al-Raghib Al-Isfahani, Abu Al-Qasim Al-Hussein bin Muhammad. Vocabulary in the strange Qur'an. He was taken care of by Nizar Mustafa Al-Baz, the library of Nizar Mustafa Al-Baz.

Al-Zindani, Abdel-Majid Aziz. (1994). Kitab al-Tawhid. Sixth Edition, 1414 AH - 1994 AD. Cultural Book Foundation. Beirut. Lebanon.

Al-Shafi'i, Muhammad bin Idris. (1940)-(1358). the message. first edition. Mustafa Al-Babi Al-Halabi & Sons Library and Press. Ghori. Egypt.

Al-Shawkani, Muhammad bin Ali. (1998). Open the Almighty. Ibn Kathir House. Damascus. Beirut.

Al-Shanqeeti, Muhammad Al-Amin. The lights of the statement in clarifying the Qur'an with the Qur'an. Endowment of the Suleiman bin Abdulaziz Al-Rajhi Foundation, Dar Alam Al-Fawad for Publishing and Distribution, Publications of the Islamic Conference.

Ibn Ashour, Muhammad al-Taher. (1984). Liberation and Enlightenment. Tunisian publishing house, Tunisia.

Al-Qasimi, Muhammad Jamal Al-Din. (1957). The Advantages of Interpretation. First Edition. House of Revival of Arab Books. Cairo. Egypt.

Qutb, Mr. (1423 AH / 2003). In the shadows of the Qur'an. Second Edition. Dar Al-Shorouk, Cairo. Egypt.

Al-Darwish, Muhyiddin, (1412 AH-1992). Expression and interpretation of the Noble Qur'an. The third edition, Al-Yamamah. Dar Ibn Kathir, Dar Al-Irshad. Damascus, Baramkeh. Syria.